مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

مفهوم التقدم في العصر الوسيط الأوربي
بين السلطة الدينية والعلمانية

د. محمد أبوالمجد محمد قناوي

أستاذ فلسفة العصور الوسطي المسيحية المساعد

قسم الفلسفة – كلية الآداب– جامعة جنوب الوادي

DOI: 10.21608/qarts.2025.397379.2255

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٤) العدد (٦٩) أكتوبر ٢٠٢٥

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

مفهوم التقدم في العصر الوسيط الأوربي
بين السلطة الدينية والعلمانية

الملخص:

يهدف هذا البحث؛ إلى مناقشة مفهوم التقدم في العصور الوسطى الأوربية، وما صاحبه من أحداث، اتسمت بطابع غير متزن بين السلطة الدينية والقوى العلمانية، على المستويين الفكري والاجتماعي. واستجلاء دور السلطة الدينية؛ باعتبارها قوة مهيمنة في تشكيل مفهوم التقدم، ودور العلمانية الطامحة إلى طلب المعرفة خارج الحدود الدينية. كما يسعى البحث؛ إلى تحديد المرتكزات والمقومات التي أثرت في تشكيل الوعي والاعتقاد بأسبقية برهان الروح أو الوعي الإلهي، واعتبار الوعي البشري انعكاسًا وصدى له، ومن ثم الاعتقاد بسمو وتعالي الحقيقة المقدسة، واعتبارها أكثر عظمة من أي موضوع مادي في العالم. كذلك معرفة عوامل خسوف اللاهوت الطبيعي، وأسباب إغفال القوانين المنطقية والرياضية، والانصراف إلى الاهتمام بالمقدس. كذلك تحليل فكرة أن التاريخ البشري تاريخٌ مقدسٌ وموجهٌ بتدبير الرب، وتأثير ذلك على صياغة مفهوم التقدم. وعلة جمعه بين الروحية والاخلاق، مع التركيز على الخلاص الكنسي. وتوضيح مكانة الدور الذي قامت به الكنيسة؟، بوصفها وسيطًا بين الله والبشرية، في تحديد مفهوم التقدم وتشكيله. إلى جانب دور الفلاسفة– وعلى رأسهم– أوغسطين في صياغة هذا المصطلح الغامض آنذاك. وقد انتهيتُ إلى أن هناك اختلافًا جوهريًا في تصور مفهوم التقدم في العصور الوسطى، عن فهمنا الحديث له. فهناك فارق جوهري، بين مفهوم التقدم بوصفه مفهومًا عامًا بين التحديث والتطور، وبين كونه مفهومًا دينيًّا، يعتمد على الوعد الأخروي. وقد لعبت الكنيسة المسيحية دورًا مهمًا في توجيه مفهوم التقدم، نحو الروحانية والخلاص الديني آنذاك.

الكلمات المفتاحية: التقدم، العلمانية، غائية التاريخ، أوغسطين، الكنيسة.

المقدمة:

يهتم البحث بتوضيح مفهوم "التقدم" وماهيته في العصر الوسيط المفعم بالتصورات اللاهوتية، والإشكاليات ذات الصلة بالقضايا المنبثقة عنها؛ فهو يحمل في معناه جانبًا اجتماعيًّا، وأخلاقيًّا، ودينيًّا، واقتصاديًّا، وغير ذلك. مما يفتح أمامنا أبواب الفلسفة؛ لاستجلاء عمق الأفكار والتشعبات التي يتضمنها هذا المفهوم في جوهره. وإن حاولنا تبسيط فكرة التقدم، وقلنا إنها تمثل تطور الإنسان عبر الزمن؛ لوجدنا أن هذا التبسيط؛ يفتح الطريق أمام تساؤلات دقيقة ومعقدة أيضًا، تتطلب إيجاد تفسيرات حول طبيعة مفهوم "التقدم. فقديمًا شملت معاني "التقدم"، مظهر التطور في المعرفة والثقافة؛ حين ارتبط بنهضة العلوم والفنون عند اليونان وما طرأ عليها من تطور في الفكر الإسلامي. وعلى الرغم من ذلك، لم تكن هذه الفرضية الوحيدة لهذا الطرح، فقد استُخدم مفهوم التقدم لوصف التحرر الجسدي من المادة، والانطلاق صوب التحول والتقدم الروحاني، وذلك في فلسفة العصر الوسيط المسيحي (عصر الإيمان)؛ حيث سعى الفلاسفة واللاهوتيون المسيحيون؛ إلى تحقيق "الفردوس الدنيوي" على هذه الأرض، الأمر الذي تطلب حالة من الارتقاء الروحي، والتحرر من القيود الجسدية في المقام الأول؛ بُغية التقدم. هذا فيما يخص الجانب الروحي الأخلاقي، ونظرًا لتعدد أبعاد المفهوم وتباينها؛ سنطرح ما أدلى به أنصار العلمانية من آراء، في إطار عملية التقدم، ومن ثم بيان طبيعة العلاقة بين الدين والعلمانية، وما طرحه كلا الطرفين من مبررات؛ لتدعيم وجهة نظره حول مقومات التقدم.

وإيمانًا –من جانبنا– بأهمية دور فلسفة العصور الوسطى المسيحية في صياغة فكرة التقدم، ودورها في تواصل الفكر الإنساني، وأهمية الدور الذي يؤديه كل عصر من عصور الإنسانية؛ في دفع هذا التصور الذي نحن بصدده. يتطرق هذا البحث؛ إلى توضيح دور الدين المسيحي في مجتمع العصور الوسطى – باعتباره معطًا من معطيات

التقدم – ممثلًا في الكنيسة؛ بوصفها عنصرًا رئيسًا من عناصر ثقافة تلك الحقبة، تزامنًا مع تدهور الثقافة، عقب انهيار الإمبراطورية الرومانية. وكيف أضحت الكنيسة مؤسسة اجتماعية فريدة، مهيمنة على جُل مناحي بلدان أوروبا الغربية، وذات تأثير كبير، ومباشر على وعي السكان في ظل حياة شاقة، ومضطربة، اتصفت فيها المعرفة بالمحدودية، واعتراها الشك وعدم المصداقية. كما نتطرق إلى بيان كيف قدَّمت الكنيسة للناس نظامًا أخلاقيًّا، يساعدهم في فهم العالم من حولهم؟، وكيف أسهمت هذه النظرة الدينية للعالم؛ في تشكيل عقلية سكان أوروبا الغربية؛ اعتمادًا على سلطة الكتاب المقدس؟ كذلك استجلاء دور علماء اللاهوت؛ بوصفهم المؤسسة الوحيدة التي تخطت حدود المكان، ودورهم في صياغة قضايا الحكم والتعليم والقوانين الاجتماعية، وما قدموه من توجيهات أخلاقية، ومعنوية للأفراد والجماعات، في مواجهة مشكلات الحياة اليومية وغيبة اليقين لاستجلاء ثقافة الحاضر والتطلع للمستقبل، وكيف نجحت الكنسية في الحفاظ على بنية المجتمع على نحو مترابط من الوحدة، في زمن عانت فيه تلك الحقبة بالانفصال الثقافي بين الطبقات الاجتماعية والسياسية؟. أضف إلى ذلك كله سعينا إلى فهم طبيعة فكرة التقدم الروحي، التي تبنتها الكنيسة، وكيف أن التاريخ يسير للتقدم؛ وذلك وفق خطة إلهية محكمة لصلاح حال الإنسان. واثبات أن التصور الديني، لم يكن –أبدا– سببًا من أسباب التراجع أو التخلف؛ بل يساند المنهج العلمي، في إطار التوجه نحو فكرة التقدم. مع مقابلة هذا التوجه الكنسي بما نزع إليه العلمانيون محاولين التأكيد على إمكانية وجود علاقة التجاور بين القيم الروحية والرؤى الواقعية العلمية. وهذا يحتاج إلى دراسة متعمقة لظروف العصر، والإحاطة بجميع النواحي الفكرية، والسياسية، والقانونية، والدينية، والأخلاقية، والاجتماعية، والأدبية محل الدراسة ؛ مما يسهم في تسليط الضوء على هذا التفاعل، وكيف أسهمت العوامل المختلفة، في تشكيل فكرة التقدم خلال هذه الفترة التاريخية.

كما يسعى البحث إلى الكشف عن ما قام به الفلاسفة المسيحيون المؤثرون، وفي طليعتهم القديس أوغسطين Augustine (٣٥٤ –٤٣٠م)، وغيره من أصحاب الإسهامات في صياغة رؤية التقدم. وقد تباينت آراؤهم، بين الرؤية الروحية الأخلاقية، والرؤية العلمانية التي ترى التقدم من منظور علمي تجريبي فحسب. ولأهمية ذلك نقول إن فلسفة العصور الوسطى جزءٌ مهمٌ من هذا التطور التاريخي نحو التقدم؛ بما شهدته من عمق النقل الثقافي والفكري، بين العصور القديمة والحديثة، وهي فترة حيوية من التطور الثقافي والديني في التاريخ البشري. فنحن نرى أن تاريخ الفكر الإنساني، ما هو إلا تطور متراكم ومتداخل للمجهودات البشرية؛ حيث تسهم الفترات التاريخية المختلفة – بشكل جماعي– في تكوين العالم الحديث وتقدمه. وفلسفة العصور الوسطى تشكل جزءًا أساسيًا من هذا التحسن والتقدم التدريجي التاريخي الشامل، وقد أسهمت في تشكيل طبيعة الثقافة والفكر والدين في العصور اللاحقة. وإن كنا نهدف – في المقام الأول – إلى عرض أبعاد فكرة التقدم في العصر الوسيط المسيحي؛ إلا أننا– على الجانب الآخر، وبالرغبة نفسها– نهدف إلى إبراز دور العامل الديني والأخلاقي في إطار عملية التقدم؛ اعتمادًا على فكرة التكامل بين الجانبين المادي والروحي. انطلاقًا من إيماننا؛ بأن مفهوم التقدم يمثل موضوعًا مهمًّا في الوقت الراهن.

انطلاقًا من تلك الرؤية نحاول الإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها:

ما معنى التقدم وطبيعته في العصور الوسطى الأوربية؟ وما التحديات التي طرأت على المفهوم في العصر الوسيط الأوربي؟ ونقد المزاعم التي تدعي أن التقدم العلمي الحديث، قد حل محل التقدم الديني في العصر الوسيط؟

ما أهم معوقات التقدم؟ وما الدور الذي وجب على الفلسفة تقديمه في ذلك الاتجاه؟

كيف نعزز دور الفلسفة والمعتقدات الدينية، في رفع الوعي الفردي والجمعي؛ لتحديد مقومات التقدم في الوقت الراهن؟، ويبقى الإشكال الأهم، ما مدى قدرة الفلسفة على

مواجهة التحديات والتطورات التي تفرضها التحديات المعاصرة؟، انطلاقًا من الاعتماد على المسلمات والفرضيات الرئيسة، التي تعالجها في كل محاورها، والمحور الأخلاقي القيمي بصفة أخص.

منهج الدراسة:

اقتضت دراسة ذلك الموضوع؛ استخدام المنهج التحليلي التاريخي؛ لفهم وتفسير أبعاد وتطورات مفهوم التقدم، ومن ثم توضيح طبيعته في فترة العصر الوسيط تحديدًا، كذلك تقصي مدلولات تلك الأفكار، من الناحية التاريخية، وتأثيرها على ثقافة العصر. والمنهج المقارن؛ للمقارنة والموازنة بين الأفكار؛ لإيجاد العلاقات المتداخلة، والمتناقضة، والمتماثلة من ناحية، وبيان أوجه صحتها أو عدم اتساقها من ناحية أخرى. والمنهج النقدي؛ لتقييم الأفكار وإبداء الرأي.

وقد وضعنا مجموعة عناصر تحاول الإجابة عن التساؤلات المطروحة، وهي:

أولًا: ماهية التقدم:

أ- تعريف التقدم.

ب- مفارقات تطور مصطلح التقدم.

ثانيًا: تصور التقدم في سياق العصور الوسطى.

ثالثًا: غائية التاريخ والتقدم في الفكر المسيحي في العصور الوسطى.

رابعًا: دور الكنيسة في توجيه التقدم والتاريخ.

خامسًا: إسهامات فلاسفة القرون الوسطى في تطور فكرة التقدم:

أ-القديس أوغسطين: مدينة الله وتقدم البشرية.

خاتمة.

أولًا: ماهية التقدم:

أ- تعريف التقدم:

تتمحور جُلُّ التعريفات التي طُرحت عن التقدم، حول فكرة أن التقدم يعبِّرُ عن الحالة العامة للتحول المستمر، والتطور نحو تحسين الأمور والمجتمعات، نحو حالة أفضل؛ اعتمادًا على فكرة التغيير التدريجي. وقد سلطت هذه التعاريف، الضوء على مفهوم التقدم، وشددت على أهمية استمرارية التفكير، والتأثير المتبادل بين الثقافات والعصور، في تطوير هذا المفهوم. ويفيد مفهوم التقدم معنيين: خاص، وعام؛ فبوجه عام، يعني مجرد السير إلى الأمام في اتجاه معين، دون حكم على قيمة هذا السير. وبوجه خاص، انتقال تدريجي، من الحَسَن إلى الأحسن، كالتقدم العلمي والتقدم الحضاري"[١]. ويعني في الإنجليزية "progress" التقدم إلى حالة أفضل، ويتم تدريجيًا.[٢] بذلك يكون ضد التراجع والتأخر. ويتخذ معناه عند بعض الفلاسفة، شكل الخط المستقيم، وعند بعضهم، شكل الخط المنحني الصاعد، وعند بعضهم شكل الحلقات. وإن اختلفت صوره؛ فهو- في الجوهر- انتقال تدريجي، في نظام متصل من الأدنى إلى الأعلى، أو من النقص إلى الكمال.[٣] ويسهم ذلك في تأكيد فكرة التقدم المستمر للبشرية، نحو تحسينها

---

١ - **المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٥١، مادة تقدم.**

2 - Stanley Diamond: In Search of the Primitive A Critique of Civilization, Taylor & Francis, United Kingdom, 2017, p 42.

٣ - **جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ص٣٢٢، مادة التقدم.**

إلى حالة أفضل؛ فالحضارة الصناعية الحديثة، لا تبني قضيتها على التطور أو التنمية؛ بل تقيمها على التفوق، وبالتالي على مفهوم التقدم، أي فكرة التغيير التدريجي.[٤]

وفقًا لذلك يشير التقدم إجمالًا إلى أي حركة تتجه وجهة إصلاحية مرغوبة، وإلى التحول التدريجي من حال إلى ما هو خير منها، وعادة ما يرتبط التقدم في الخطاب السياسي والفلسفي الشائع، بقيم مثل الانفتاح، والتطور في الآراء السياسية، والاجتماعية، والاستنارة وغيرها، وهو الإجابة التي تقدمها المنظومة المعرفية عن السؤال المعرفي النهائي، الخاص بالهدف من وجود الإنسان في الكون.[٥] وهناك وجهة نظر أكثر شمولية للتقدم؛ تُفيد أنه التطور الأخلاقي والمادي للإنسانية معًا.[٦] من هنا نسعى إلى تأكيد أن التقدم، إنما هو الذي يتم بطريقة تدريجية، عبر إسهامات الفكر الإنساني، الممتد من القديم إلى الوسيط ثم الحديث، وصولًا إلى الفترة المعاصرة. وليس كما يروج بعض الباحثين لفرضيات تُسهم في خلق انقطاعات معرفية، بين عصور الفكر الإنساني المتعاقبة، ومن يسعون لتهميش العامل الديني واستبعاده؛ بل جعله حاجزًا وعائقًا أمام عملية التقدم في بعض الأحيان.

ب-مفارقات تطور مصطلح التقدم:

تنظر الفلسفة إلى الأحداث التاريخية، نظرة تتصف بالعمومية والتكامل، وتنسحب هذه النظرة على جملة التاريخ الإنساني، وإذا استلهمنا هذه الروح الفلسفية؛ نستطيع إيجاد

---

4 - Angelo Di Berardino: Encyclopedia of Ancient Christianity, InterVarsity Press, U.S.A, 2014, p 317.

٥ - عبد الوهاب المسيري: قراءة في مفهوم التقدم، مجلة نوافذ، ع ٤، الخرطوم، يناير ٢٠٠٤م، ص١.

6 -Concha Roldán ،Daniel Brauer ،Johannes Rohbeck: Philosophy of Globalization, De Gruyter, Germany, 2018, p 97.

القواسم والعوامل المشتركة، التي تؤثر على التقدم الإنساني؛ من واقع استقراء تلك الأحداث.[٧] وفقًا لتلك الروح الفلسفية؛ تصبح حقائق التاريخ الإنساني ذات معنى وأهمية في جانبيها الأخلاقي والمادي؛ أملًا في إيجاد ذلك المثل الأعلى. بذلك تستطيع الفلسفة، القيام بدورها في فهم كيف يمكن للذهن البشري؛ أن يكوّن مُثُلًا عليا، كلما تقدم الإنسان في سعيه نحو طلب الحقيقة، والتطلع نحو بلوغ الخير والقيم الأخلاقية. هنا تحديدًا؛ تستطيع الفلسفة أن تؤدي دورًا فاعلًا في استيعاب المسار العام لمصير الإنسان نحو بلوغ تقدم حقيقي. "وفقًا لذلك؛ يتعين تأكيد نقطة جوهرية، وهي أن التاريخ العالمي، لا يُشكِّل– ببساطة– تسجيلًا للأحداث والوقائع بمفردها، وليس مجرد تجميع للحقائق؛ بل يتطلب روحًا فلسفية، تُسهم في استيعاب العلوم التاريخية".[٨]

من واقع تلك الرؤية، يبدو أن الجدل الدائر حول متى تم التعبير عن مفهوم التقدم لأول مرة في الحضارة الغربية؛ يعتمد على مغالطة منطقية؛ إذ ليس هناك معيار واحد، أو تعريف واحد محدد لفكرة التقدم؛ بل هناك عديد من الأفكار المختلفة المتعلقة بهذا المفهوم؛ لذلك، يُصبح من المفيد، تحويل الجدل العلمي، من متى بدأت فكرة التقدم، إلى استفسارات حول العوامل التي تشكل الفكرة الحديثة للتقدم، مقارنة بتلك الموجودة في فترات تاريخية سابقة.[٩] ويصبح واجبًا أن نتجنب – في دراستنا للفكر التقدمي – الربط المطلق بمفهوم واحد وحصري للتقدم؛ لأنه في الحقيقة، لا يوجد مفهوم واحد حقيقي ومتجانس ومحدد للتقدم، يظهر في نقطة زمنية معينة. فهناك العديد من الأفكار المختلفة حول التقدم، ومتى يمكن أن نرسم الخطوط، وكيف يمكننا التفريق بين التطورات التاريخية

7 - Louis Shein: Readings in Russian Philosophical Thought: Philosophy of History, Wilfrid Laurier University Press, Canada, 2010, p 33.
8 - Ibid: p 33.
9 - Gilbert F. LaFreniere: The Decline of Nature: Environmental History and the Western Worldview, Oak Savanna Publishing, United States , 2012, p 157.

المختلفة، التي قد يكون من الصعب تحديدها بدقة؛ بسبب التعريفات السطحية المحدودة لهذا المفهوم، تلك التي طرحها الباحثون. بدلاً من ذلك، يجب أن نفكر في تنوع وتعدد الأفكار المتعلقة بالتقدم، ونحاول فهم السياقات التاريخية والاجتماعية، التي نشأت من خلالها هذه الأفكار.[١٠]

ونحن نرى أن فكرة التقدم البشري، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرة الوحدة البشرية. فالتقدم يعني التتابع ووحدة الاستمرارية. "ولكي يكون هناك تقدم؛ يجب أن يكون هناك شيء ما يتقدم؛ لأن التقدم سمة، وليس تجريدًا، وأن شيئًا ما، يجب أن يظل على حاله في جميع المراحل التي يفترضها. فهناك مراحل متتالية في تطور الأمور، مثل نمو النبات، من بذرة إلى شجرة كاملة ،أو نمو الحيوان من بويضة إلى كائن كامل؛ لذلك فالتواصل بين المراحل؛ شرط لبلوغ النضج، مع الأخذ في الاعتبار؛ احتفاظ كل مرحلة بسماتها الخاصة في الوقت نفسه؛ وإلا فلن يكون هناك تقدم بالمعنى الحقيقي. لذلك كان من المستحيل أن يدرك البشر وجود تقدم في التاريخ، قبل أن يدركوا أن هناك وحدة في التاريخ في الوقت نفسه – أو بعبارة أخرى، أنه على الرغم من التعاقب المستمر للأجيال والأمم والأنظمة والثقافات، والتي أثرت– بشكل أو بآخر– على فكر الإنسان، لكنه– على الرغم من ذلك– يظل– دائمًا– محتفظًا بطبيعته الأولى بوصفه إنسانًا. وفق منظور يتسم بالوحدة، وبتنسيق عقلاني لسلسلة الأحداث البشرية بأكملها [١١]؛ بذلك يصبح التقدم ليس مجرد مفهوم نظري أو فكرة مجردة؛ بل خصائص، أو سمات قابلة للمشاهدة والتحليل. ويشير ذلك إلى أن التقدم؛ هو شيء قائم في العالم الواقعي، ويمكن تحديده وادراكه وتطبيقه في جوانب الحياة والمجتمع. وبمعنى آخر، ليس التقدم مجرد فكرة نظرية؛ بل

10 - Gilbert F. LaFreniere: Op. Cit, p 157.

11- Robert Flint: The Philosophy of History in Europe, Outlook Verlag, Germany, 2023, p 42.

تجسيد للتحسين، والتقدم الواقعي في مجموعة متنوعة من الميادين، مثل العلم، والتكنولوجيا، والثقافة، والمجتمع. يؤكد هذا المفهوم، الطابع الواقعي للتقدم؛ بوصفه شيئًا يمكن رصده، وقياسه، وتجربته، بدلًا من أن يكون مفهومًا نظريًا فقط.

هنا يأتي التساؤل، ماذا يعني بالضبط "التقدم" أو "الانتقال من الأدنى إلى الأعلى" من الناحية الموضوعية؟، ونقول إنه عبر التاريخ، من اليونان القديمة وصولًا إلى القرن العشرين، يمكن تمييز اتجاهين مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بالفهم المتطور لهذا المفهوم، وعلى الرغم من اختلافهما، فإن كليهما، يشير إلى مفهوم "التقدم". أولًا، هناك فكرة التحسن البطيئ والتدريجي والمتراكم في المعرفة. إنها طريقة لاستخدام المعرفة والتجارب السابقة، في مواجهة التحديات التي تواجه البشر من قبل الطبيعة. يتبدى في الأشكال المختلفة من الفنون، والعلوم، والممارسات الإنسانية المتعددة. ويؤكد هذا الاتجاه موضوعية المعرفة؛ وكما هي موجودة في ميادين العلوم والتكنولوجيا، فستستمر في التطور والتحسن بشكل دائم؛ لتصبح أكثر كمالًا وتطورًا مع مرور الزمن.[١٢] أما الاتجاه الآخر؛ فهو المتعلق بحالة الإنسان الأخلاقية والروحية على هذه الأرض، وبسعادته، وتحرره من عذابات الطبيعة والمجتمع، وبصفائه وهدوئه. وفيه يصبح هدف التقدم؛ هو أن تحقق البشرية- في نهاية المطاف، هنا على الأرض- تنمية الفضائل الروحية والأخلاقية؛ مما يؤدي إلى كمال ونضج الطبيعة البشرية نفسها؛ لذلك يرى بعض الباحثين أن تحقيق النعيم الروحي والكمال الأخلاقي يشكل شرطًا أساسيًّا، وليس مجرد وسيلة،

12 - Robert Nisbet: History of the Idea of Progress, Routledge, London & New York, 2017, p 5.

لتحقيق المعرفة أو زيادتها.[١٣] وهكذا كان ظهور فكرة التقدم؛ مشروطًا بالمزاج الفكري والأخلاقي للمجتمع.[١٤]

إذن نستطيع القول إن معظم الحضارات، تشتمل على مفهوم للتقدم والتخلف والرقي والانحطاط، ولكن التقدم والرقي مرتبطان بمنطلقات كل مجتمع ومقدساته، ولم تكن هناك نظرية عامة للتقدم، تضم البشر جميعًا، وتفترض وحدة التاريخ الإنساني، وحركته الدائمة نحو مستقبل أحسن، ويذهب بعض المؤرخين؛ إلى أن فكرة التقدم كامنة في العقيدة المسيحية (وفي الديانات التوحيدية ككل)؛ فالفكر اليوناني القديم– – ولاسيما عند فلافسفة الطبيعة– شأنه شأن كثير من الوثنيات القديمة لم يؤمن بإله مفارق للطبيعة، أو منزه عنها؛ (إذا استثنينا من ذلك الاحكم سقراط وأفلاطون وأرسطو) ولذا تصوّر التاريخ في صورة حلقات متكررة لا معنى لها؛ أما في الديانات التوحيدية، فهناك إله مفارق للطبيعة والتاريخ، يمنحهما هدفًا نهائيًّا، يتحقق تدريجيًّا في داخل الزمان؛ من خلال عون الإله وجهد الإنسان، إلى أن نصل إلى لحظة الخلاص النهائية.[١٥] لذلك يظهر أن هذا التصوُّر للتاريخ بوصفه تقدمًا، سمة مميزة للقصة الكتابية في الكتاب المقدس؛ فلها بداية واتجاه، وهدف، وتقود إلى مكان ما، وبمجرد الوصول إلى النهاية؛ يجازى كل فرد بما يستحقه. وبناءً على تلك النظرة؛ تصبح حياتنا على هذه الأرض ذات معنى وهدف.[١٦] وهكذا أصبح تاريخ الغرب مشبعًا بفكرة التقدم، ابتداءً من العصور الوسطى. والتي تمثل، – وفقًا لما ذكره المؤرخ الفرنسي جان جيمبل (١٩١٨ – ١٩٩٦م) Jean Gimpel –،

---

13 - Ibid: p 5.

14 - Ibid: p 12.

١٥ – عبد الوهاب المسيري: قراءة في مفهوم التقدم، مرجع سابق، ص١.

16 - Garland E. Allen ،Roy M. MacLeod: Science, History and Social Activism: A Tribute to Everett Mendelsohn, Springer Netherlands, United States, 2013, p 156.

الثورة الصناعية الأولى بحق، فاخترعت الطواحين، وبُنيت الأديرة والكاتدرائيات والقلاع، وقد اعتقد جيمبل؛ أنه بفضل الأمل الذي بعثته، وبفضل النظرة الأخروية الغائية الدينية لليهودية، والمسيحية، والإسلام، تعززت هذه التقنيات. ثم حدث أنه بعد الثورة العلمية في القرن السابع عشر، وحتى الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، فقدت هذه الرؤية الغائية للتاريخ أساسها الديني، وفي أكثر أشكال الوضعية تطرفًا؛ توصلت إلى فكرة أن العلم هو الوسيلة الوحيدة لفهم العالم وإنقاذ البشرية.[١٧]

وقد تمت علمنة الفكرة التاريخية المسيحية المتفائلة في عصر النهضة، وهيمنت المرجعية الواحدية المادية، على رؤية الإنسان الغربي للكون؛ فأصبح للتاريخ هدف، يتحقق في الواقع، وتم تأكيد لا محدودية العقل الإنساني، وعدم حاجته لوحي إلهي، وعلى أن التقدم حتمي؛ فهو كامن في القوانين الطبيعية ذاتها، التي تدفع بالتاريخ الإنساني، وظهرت فكرة التاريخ الإنساني العالمي، فقانون الطبيعة قانون عام واحد، يدفع بالتاريخ الإنساني كله، حسب متتالية محددة، وبدأت فكرة التقدم، تتبلور على يد فلاسفة مثل فوكو Michel Foucault (١٩٢٦ – ١٩٨٤م)، وفولتير، وتيرجو Turgot (١٧٢٧-١٧٨١م)، وهردر Herder (١٧٤٤ –١٨٠٣م)، وكانط Kant (١٧٢٤-١٨٠٤م).[١٨] وأصبح مفهوم التقدم في المنظومة الغربية– يدور في إطار المرجعية المادية الكامنة (في عقل الإنسان والطبيعة)،[١٩] ونظرًا لطغيان ذلك الجانب المادي الكمي في قياس التقدم؛ أُسقطت كل الخصوصيات الدينية والإنسانية، وتم التركيز على قياس الثمرة المباشرة العاجلة الملموسة، دون الثمن الآجل غير المباشر وغير الملموس.[٢٠] وأصبح يُنظر إلى

---

17 - Garland E. Allen ،Roy M. MacLeod: Op. Cit, p 156.

١٨ – **عبد الوهاب المسيري: مرجع سابق، ص١.**

١٩ – **المرجع نفسه: ص٢.**

٢٠ – **المرجع نفسه: ص٣.**

الطمأنينة والسعادة؛ على أنها أمور نسبية متغيرة لا تقاس، أما التقدم المادي فيمكن قياسه علميًا، وهو ما يعني؛ أن التقدم شيء، والطمأنينة والسعادة شيء آخر.[٢١] انطلاقًا من هذا اللانهائي الكمي؛ أصبح الإنسان الغربي؛ يُعرِّف التقدم بأنه، النمو الكمي في الإنتاج والاستهلاك فحسب، بصرف النظر عن أية غائية إنسانية، ودون الرجوع إلى مشروع إنساني، أو إلى صفة الحياة.[٢٢]

في ثنايا تلك الرؤية السالفة؛ تطور العلم والتكنولوجيا، وأصبحا محركين رئيسين لعملية التقدم الإنساني، وتحول التاريخ، إلى قصة من التحسين المستمر؛ من خلال التطورات العلمية والتكنولوجية، وتحسين الظروف المادية والحياة البشرية بشكل عام.

ثانيًا: تصور التقدم في سياق العصور الوسطى:

يعالج هذا العنصر طبيعة فكرة التقدم المسيحية في العصور الوسطى، وكيف يمكن أن يصبح النمو الأخلاقي والفضيلة علامات للتقدم، إلى جانب فكرة التقدم الروحي. هنا نواصل الحديث عن الفكرة، التي تنص على أن الفكر الإنساني تتخلله الوحدة، ويخضع في جوانبه المختلفة لعناصر التأثير والتأثر؛ فحضارة الغرب، امتداد لتراث متصل، يحمل زخمًا كبيرًا من الثقافة اليونانية، وقواعد الحكم الروماني، والتقاليد الدينية المسيحية؛ لذلك لا يمكننا فصل فكرة التقدم الحديثة، عن أصولها المسيحية في العصور الوسطى. "من هذا المنطلق؛ واصل فلاسفة التاريخ، الذين ركزوا على الدراسات الكتابية، خلال منتصف القرن العشرين، مثل الفيلسوف الألماني كارل لويث Karl Löwith (١٨٩٧ – ١٩٧٣م)، مشروع استعادة فكرة التقدم المسيحية، أو بمعنى آخر، وصف فكرة التقدم؛ على أنها ليست سوى مجرد علمنة للتصور الثيولوجي؛ مما دفع بعض الكُتَّاب؛

---

٢١ – **المرجع نفسه: ص٤.**

٢٢ – **عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، دار الهلال، ط١، القاهرة، ٢٠٠١ ، ص ١٥٢.**

إلى إعادة تعريف الإيمان بالتقدم ؛ بوصفه الوريث غير الشرعي لعلم اللاهوت المسيحي.[٢٣] وعُرفت فكرة التقدم، بأنها البديل الحديث لفكرة العناية الإلهية المسيحية، والتي يُشار إليها أيضًا، بفرضية العلمية الوضعية، أو أطروحة العلمانية؛ حيث تتوافق هذه الفكرة مع ما ذكره فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١– ١٦٢٦م) في حديثه عن المنهج التجريبي الجديد، وفي مواضع أخرى من مؤلفاته؛ حين نظر إلى المنهج العلمي الجديد، وقدرته على اختراق أسرار الطبيعة؛ بوصفه وسيلة لاستعادة السيطرة البشرية عليها، بعدما فقدت جراء السقوط من جنة عدن. كذلك يمكننا تتبع الجذور المسيحية لفكرة التقدم، عند شخصيات مثل أوغسطين وآخرين في العالم القديم، واللاهوتي الإيطالي "يواكيم الفيوري Joachim of Fiore (١١٣٥ – ١٢٠٢م)" في القرن الثاني عشر، كما عرضها عالم الاجتماع الأمريكي روبرت نيسبت Robert Nisbet (١٩١٣– ١٩٩٦م) في كتابه "تاريخ فكرة التقدم".[٢٤] نتيجة لذلك؛ تم تصور البحث عن الخلاص؛ على أنه ذو طبيعة تقدمية، وذو طبيعة أخلاقية بالطبع.[٢٥]

ومن الجدير بالذكر، أنه عندما تم إعادة صياغة فكرة التقدم في تاريخ الخلاص بشكل كامل، لم تشمل فقط تطور الدين، ولكن أيضًا نمو الحضارة، ومفهوم استقرار الدولة في الوقت نفسه. وكان السؤال الآخر، الذي يتطلب الانتباه هو، ما طبيعة العلاقة بين تاريخ الخلاص والتاريخ العلماني؟، ولا سيما مشكلة موقع الدولة في مخطط الرب.[٢٦] ونعثر على إجابة ذلك التساؤل عند "أوريجن السكندري Origen of Alexandria

23 - Gilbert F. LaFreniere: The Decline of Nature: Environmental History and the Western Worldview, Op . cit, p 147.
24 - Ibid: p 147.
25 - Jacques Le Goff: The Birth of Europe, Wiley, U.S.A, 2009, p 199.
26 - Angelo Di Berardino: Encyclopedia of Ancient Christianity, Intervarsity Press, U.S.A, 2014, p 317.

(١٨٥- ٢٥٤م)، الذي زعم أن المسيحيين لم يهددوا الدولة على الإطلاق؛ بل على النقيض، أسهموا في تعزيز استقرارها. وقد نمى مستوى الأخلاق في الدولة؛ تزامنًا مع انتشار المسيحية في البلاد؛ وبالتبعية نمت الإمبراطورية الرومانية، وتوسعت فكرة التقدم في الخلاص؛ لتشمل العالم بأسره. ثم تغير الوضع السياسي تمامًا بعد الثورة القسطنطينية، خلال العقود الأولى من القرن الرابع الميلادي. وأفرد عديد من اللاهوتيين المسيحيين دورًا جديدًا للإمبراطورية الرومانية في تاريخ الخلاص.[٢٧] ففي منظور "يوسابيوس القيصري" Eusebius of Caesarea (٢٦٥-٣٣٩م)، تغيرت الملكية القسطنطينية، وقُلّدت الملكية الإلهية. وأصبح يُنظر إلى عصر قيادة "قسطنطين Constantine (٣٠٦-٣٣٧م)" للإمبراطورية ؛على أنه نتيجة للتطور الذي قاد العالم نحو تبجيل إله المسيحيين، والذي بدوره ضمن الاستقرار والازدهار. وأصبح الإمبراطور وكيل الرب في تعزيز الاستقرار وضمانه، ومن اللحظة التي سمح فيها للمسيحية بالانتشار؛ سُلط الضوء على تقدم البشرية اللحظي والمستقبلي.[٢٨] وقد تم استيعاب ذلك؛ على أنه تحقق تدريجي للملكوت السماوي. وهكذا، ضم أوسابيوس جميع التنبؤات، التي تمت صياغتها في القرن الثاني الميلادي، في بوتقة لاهوتية متماسكة عن التاريخ. وتم التعبير عن الفكرة المسيحية للتقدم بشكل كامل.[٢٩] وقد أدرك الأباطرة الرومان أخيرًا؛ أن التحالف مع المسيحية؛ سيجلب التقدم- وفقًا لرؤية يوسابيوس- وقدّروا الإسهام الذي قدمته المسيحية لاستقرار الإمبراطورية، بمجرد انتشارها بين معظم السكان. وأصبح العنصر المسيحي؛ هو العنصر المسيطر في مراسلات الإمبراطور قسطنطين. وأدرك أن قدرته على التوحيد وإحلال السلام في الإمبراطورية، برعاية "العناية الإلهية، بالتزامن مع نجاحاته العسكرية؛ يعود

---

27 - Ibid: p 317.
28 - Ibid: p 317.
29 - Ibid: p 318.

إلى المسيحية. وقد غذَّى ذلك؛ فكرة التطور التدريجي للتاريخ المسيحي للخلاص؛ وبالتالي تم دعم مملكة قسطنطين بالأساس الجديد. وأصبحت الفكرة المسيحية عن التقدم، ضرورية لفهم التغيير الذي حدث في عهد قسطنطين.[٣٠]

بناءً على ذلك ؛ حملت نظرية التقدم في العصور الوسطى بعض الجوانب المهمة جدًا للتطور اللاحق للفكرة الحديثة عن التقدم: أولًا، في تخليها عن الفكرة الرواقية اليونانية للدورات، على الرغم من إبقائها على الاعتقاد في الانحطاط،[٣١] – التي طغت– حتى في بعض الأحيان– على فكرة التقدم نفسها–. [٣٢] واعتُبر تاريخ العالم فريدًا من نوعه، ولن يتكرر أبدًا. ثانيًا، المصير المحدد للبشرية مستقبلًا. إضافة إلى فكرة المجتمع العالمي، التي استعارتها من المفكرين الكلاسيكيين. وأخذت شكل دولة عالمية في الإمبراطورية الرومانية، وشكل كنيسة عالمية في العصور الوسطى، ثم انتقلت لاحقًا إلى "مفهوم وحدة الشعوب بوصفهم أعضاء مجتمع حضاري مشترك.[٣٣] ومن بين الأمثلة البارزة على هذا التفكير "الحداثي"، فرانسيس بيكون، الذي كان ناقدًا لفكرة تكرار دورات التاريخ؛ لأنه اعتقد أن هذه الفكرة، قد تعوق التقدم المنتظر للمعرفة.[٣٤] فقد رفض المفهوم

30 - Ibid: p 318.

31 - Robert Benjamin Bailey: Sociology Faces Pessimism: A Study of European Sociological Thought Amidst a Fading Optimism, Springer Netherlands, U.S.A, 1958, p15.

٣٢ – جلال أمين: خرافة التقدم والتخلف العربي والحضارة الغربية في مستهل القرن الواحد والعشرين، ط ٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٠.

33 - Robert Benjamin Bailey: Op . cit, p15.

34 - Walter Kudrycz: The Historical Present: Medievalism and Modernity, Bloomsbury Publishing, London, 2011, p11.

المحدود للزمن، وتقديس التراث الذي ميَّز فكر العصور الوسطى، كما جاء في كتابه التأسيس العظيم للعلوم" (The Great Instauration of Sciences).[٣٥]

وهذا ينفي ادعاء بعض الباحثين، بأن مفكري العصور الوسطى، لم يكن لديهم فكرة عن التطور أو التقدم؛ بل الحقيقة؛ أنهم لم يعلقوا أهمية كبيرة على التقدم في الوسائل، غير المصحوبة بتحسين الغايات، بقدر ما يعلقه العقل الحديث. "وعلى الرغم من تواضع الإرث العلمي للعصر الوسطى؛ فإنه شمل الأرقام الهندوسية، والنظام العشري، ومفهوم العلوم التجريبية، والإسهامات الجوهرية في الرياضيات، والجغرافيا، وعلم الفلك، والبصريات، واكتشاف البارود، واختراع النظارات، والبوصلة البحرية، وساعة البندول، ومن أكثرها تأثيرًا تقطير الكحول. وقد طور الأطباء العرب واليهود، الطب اليوناني، وحرر الرواد المسيحيون الجراحة، مثل فنون تجميل اللوزتين؛ حتى إن نصف مستشفيات أوروبا، هي مؤسسات من العصور الوسطى، أو ترميمات حديثة لمؤسسات العصور الوسطى. وقد ورث العلم الحديث نزعته الدولية، وقسطًا غير قليل من لغته الدولية، من فكر القرون الوسطى.[٣٦] وبجانب الالتزام الأخلاقي، فإن أغنى جزء من تراث العصور الوسطى هو الفن".[٣٧] وبعد فإنا لن نستطيع تقدير العصور الوسطى حق قدرها؛ إلا إذا نظرنا إلى النهضة الأوربية؛ على أنها إتمام لما بدأته لا نقض له.[٣٨] فنحن في انتقالنا من عصر الإيمان إلى عصر النهضة؛ إنما نتقدم من الطفولة المزعزعة غير الواثقة بنفسها، إلى الشباب البهيج للثقافة لحضارة، ومن حقها علينا؛ أن نعمل– على الدوام–

35 - Samuel Goldman: The Idea of Progress: a model course, Texas Tech University, united states , 2015, p 16.

36 - Will Durant: The Age of Faith: The Story of Civilization, Vol IV, Simon & Schuster, New York, 2011, p 408.

37 - Will Durant: Op. cit, p 408.

٣٨ - ويل ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، مج ٤، ج٦، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣٥٣.

على تعزيزها، وألا نتركها تموت.[٣٩] بل وجب تأكيد أن "الحداثة ليست سوى عباءة تُلبس على القرون الوسطى" [٤٠] ؛ لذلك يبقى الوصف الذي يدلل على أن الغرض من فلسفة القرون الوسطى، وسبب وجودها؛ هو توفير إثبات ميتافيزيقي للإيمان المسيحي فحسب؛ وصف معادٍ لنظرية التراكمية والتطور العلمية، أو كتفكك لمبادرة أو دور القرون الوسطى الفلسفية. وهو تفسير مناف للحقيقة؛ لأنه في الفترة المتأخرة، كما في الفترة المبكرة، كان أبطال النزاعات الفكرية – مع استثناءات قليلة – من اللاهوتيين. وحتى لو نظرنا إلى العصر المدرسي بأكمله؛ على أنه ينتمي إلى تاريخ اللاهوت؛ فسنظل نجد التجريبية، ترفع رأسها داخل اللاهوت؛ بل حتى الهجوم الذي تعرضت له الميتافيزيقيا؛ كان من قبل اللاهوتيين أنفسهم، وعلى أسس لاهوتية وفلسفية في الوقت نفسه؛ لذلك لا يمكن اعتبار ظهور التجريبية، وتراجع الميتافيزيقيا في العصور الوسطى المتأخرة؛ بمثابة تمرد للفلسفة العلمانية ضد العقيدة الدينية؛ لأنه تم في بيئة التدريس والمناقشة اللاهوتية. وإذا أردنا معرفة أسباب التقدم الحديثة ؛ يجب علينا أن نبحث عن روافدها داخل المدرسية نفسها، وضمن مجال لاهوت العصور الوسطى.[٤١]

إذن نحن نحتاج إلى فهم كيفية تأثير العناصر الدينية والأخلاقية والثقافية، على فكرة التقدم في العصور الوسطى، وكيف يمكن رؤية هذا التقدم على أنه جزء من تراث متصل، يحمل تأثيرًا كبيرًا على التفكير الحديث. وقد يسهم ذلك؛ في تصحيح الفهم السلبي عن العصور الوسطى، ويسلط الضوء على دورها وإسهاماتها المهمة في تطور الثقافة والفهم البشري.

---

٣٩ - نفس المرجع: ص ٣٥٥.

40 - Will Durant: Op. cit, p 408.

41 - Ernest A. Moody : Studies in Medieval Philosophy, Science, and Logic: Collected Papers 1933–1969, University of California Press, United States, 2022, p288.

ثالثًا: غائية التاريخ والتقدم في الفكر المسيحي في العصور الوسطى:

كان للنظرة الغائية للتاريخ، والخطة الإلهية التي تتكشف تدريجيًا فيه؛ من واقع مفهوم عناية الله بالعالم، دورٌ كبيرٌ في صياغة مفهوم التقدم آنذاك؛ فقد اعتقد الفلاسفة واللاهوتيون المسيحيون؛ أن للتاريخ هدفًا محددًا؛ غايته تحقيق مخطط الله للخلاص البشري، المتمثل في مجيئ يسوع المسيح. هذا المفهوم الديني، أثَّر– بقوة –على صياغة رؤية التقدم؛ فاعتقدوا أنه من خلال التقدم الديني والروحي، والأخلاقي، والاجتماعي بالتبعية؛ يمكن للبشرية أن تستعد لاستقبال المسيح ومجيئه الثاني، وبالتالي بلوغ التقدم الحقيقي. وقد قدَّم اللاهوت المسيحي مفهومًا خاصًا للزمن؛ بوصفه مفهومًا خطيًّا؛ حيث يتقدم الزمن نحو تحقيق الغاية المسيحية. وكان هذا المفهوم جزءًا أساسيًّا من تفسير التقدم في العصور الوسطى.

هنا نناقش افتراض المؤرخ البريطاني الشهير جون بانيل بيوري J.B. Bury(١٨٦١–١٩٢٧م)– الذي انتقد– بشدة – فكرة التقدم في العصور الوسطى– الذي ذهب فيه، إلى أن فكرة الكون التي سادت العصور الوسطى، والتوجه العام لأفكار البشر؛ كانت تتعارض مع بعض الفرضيات الأساسية التي تتطلبها فكرة التقدم.[٤٢] فبحسب النظرية المسيحية التي وضعها الآباء، فإن حركة التاريخ– برمتها– تهدف إلى ضمان سعادة قسم صغير من الجنس البشري في عالم آخر. ولم يكن هناك أي اهتمام، بما إذا كان أي تحسن تدريجي في المجتمع، أو زيادة في المعرفة، تحدث في الحياة الدنيوية؛ لكن الوعد الوحيد بالتحسين؛ كان وعد الحياة الآجلة، ويتحدد في المصير النهائي؛ اعتمادًا

42 - J. B. Bury: The Idea of Progress: An Inquiry into Its Origin and Growth, Macmillan and Company, Limited, London , 1921, p 20.

على الإيمان والعيش وفقًا للكتب المقدسة.[٤٣] لذلك رأى بيري أن عقيدة القرون الوسطى، لا تفهم التاريخ باعتباره تطورًا طبيعيًا؛ بل تصوره بوصفه سلسلة من الأحداث، التي تحدث بفعل إلهي، وبتوجيه من الوحي. ولو تُركت الإنسانية لتسلك مجراها الخاص؛ لانجرفت إلى مصير غير مرغوب فيه تمامًا، ولذاق البشر مرارة البؤس الأبدي، وقد تطلب ذلك عملًا إلهيًا فائقًا للطبيعة. ومع تزايد هيمنة وقوة نفوز عقيدة العناية الإلهية؛ لم يكن ممكنًا أن ينشأ إيمان بالتقدم بسهولة. فعقيدة العناية الإلهية– كما تم تطويرها في أعمال أوغسطين في مدينة الله– كانت تهيمن على الفكر في العصور الوسطى.[٤٤] لذلك ادعى بعض الباحثين؛ أن الظروف العامة للحياة والفكر في العصور الوسطى؛ لم تكن تربة خصبة لنمو وانتشار فكرة التقدم؛ حيث انحصرت الدراسة في اللاهوت والفلسفة، وهما من المقاطعات المعرفية، التي يصعب فيها قياس مدى التقدم.[٤٥] علاوة على ذلك، كان هناك عقيدة الخطيئة الأصلية، وهي عقبة كأداء أمام التحسن الأخلاقي للجنس البشري، في أي عملية تدريجية للتطور؛ فمادام الجنس البشري موجودًا على الأرض؛ فإن كل طفل سيولد شريرًا بالفطرة ويستحق العقاب؛ لذلك يصبح أي سعيٌ بشري إلى بلوغ التقدم والكمال الأخلاقيين مآله الفشل.[٤٦] ولم يُنكر بيوري إنكارًا قاطعًا، وجود أفكار عن التقدم في العصر الوسيط؛ لأنه رأى أن هناك سمات معينة في نظرية القرون الوسطى؛ يجب ألا نتجاهل أهميتها، ومنها: "أن اللاهوت المسيحي، بنى توليفة، حاولت –لأول مرة– إعطاء معنى محدد لمسار الأحداث البشرية برمته، تعطي أهمية للماضي،

43 - Filipe Duarte Santos: Time, Progress, Growth and Technology: How Humans and the Earth are Responding, Springer International Publishing, New York, 2020, p 179.
44 - J. B. Bury: Op. cit, p 21.
45 - Robert Flint: Op . cit,, p 40.
46 - Ibid: p 22.

وتحدد هدفًا للمستقبل".[٤٧] إلى جانب فكرة العالمية، والأخوّة البشرية. وقد غذَّت تلك الأفكار – ضمنيًّا – الطموح الإمبراطوري الروماني.[٤٨] وأوحت لبعضهم؛ إنشاء وطن واحد لجميع شعوب العالم. وقد اتخذت هذه الفكرة في الإمبراطورية الرومانية، وفي العصور الوسطى، شكل دولة وكنيسة عالميتان، ثم انتقلت– فيما بعد– إلى مفهوم الترابط بين الشعوب بوصفهم مسهمين في مجموعة مشتركة؛ ومن ثم أصبحت إحدى دعائم فكرة التقدم في العصر الحديث.[٤٩] ويجدر بي توضيح أن تصور الكنيسة للتقدم لم يكن بالدرجة التي يمكن أن يقابلها بما كان في الثقافة الهندوسية من جهة والثقافة الإسلامية من جهة ثانية وثقافة عصر النهضة من جهة ثالثة، ويبدو ذلك في أن الكنيسة قد أدركت أنها تحمل قيمًا مغايرة للثقافة السائدة في الإمبراطورية الرومانية التي تتسم بالطبع المادي ولاسيما في جانبها السياسي، كما فطنت أيضًا أنها لا تستطيع فرض قيمها الروحية على المجتمع الروماني دفعة واحدة؛ وذلك لأنها تفتقر إلى القوة التي تساندها مثل البراهمة، وهي أيضًا قد عانت من هجمات الفلاسفة سواء في مدرسة الإسكندرية أو أنطاكية أو روما على نحو كان من العسير التأليف بين اللاهوت وتصوراته الروحية والفلسفة اليونانية المفعمة بالنظريات العقلية أو الفكر الرواقي ونظريته في وحدة الوجود، وذلك في القرون الميلادية الأولى ولاسيما في ظل تعاليم القديس بولس، أما في العصر الوسيط الإسلامي فلم يكن العداء سافرًا بنفس الدرجة التي منعت الكنيسة من الاستفادة من الفلسفة في تصورها للتقدم.

ومع ذلك فأن للكنيسة اسهامات غير مباشرة في أطوار تصور التقدم نذكر منها: اهتمامها بالإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، والارتقاء بسلوك الأفراد والدعوة للحب والمودة،

47 - Ibid: p 22.
48 - Ibid: p 23.
49 - Ibid: p 24.

وعزوفها عن مناهضة نظام الدولة العسكري والسياسي وغنى النبلاء الفاحش وظلمهم للعامة واهمالهم رعاية المعوزين، فذهبت تشيد القيم الروحية وتغرز الفضائل الربانية المستوحاة من العهد الجديد شيئًا فشيئًا، وبالجملة فإن دور الكنيسة في الطور الأول لتصور التقدم؛ قد اجتهد في تحاشي الصدام بالسلطات القائمة من ناحية، واجتذاب وتوظيف الآداب والفنون في بنية الكنيسة لكي تستطيع غرس التقدم الروحي في الثقافة السائدة من ناحية أخرى. وسوف نحاول توضيح ذلك في السطور التالية.

رابعًا: دور الكنيسة في توجيه التقدم والتاريخ:

كان لانتشار المسيحية تأثير كبير على الحضارة الأوروبية خلال العصور الوسطى؛ فقد تصدرت الكنيسة المسيحية واجهة السلطة والثقافة؛ وهذا أثر– بقوة– على النظام الاجتماعي والثقافي في تلك الحقبة. ومن الجدير بالذكر؛ أن هذا الموضوع مثار للجدل ؛ حيث يمكن تفسير العصور الوسطى، وتأثير الدين المسيحي فيها من عدة أوجه : فبعضهم يرى العصور الوسطى؛ على أنها فترة من التقدم والازدهار في الثقافة والعلوم، بينما يرى بعضهم الآخر؛ أنها فترة من القمع والجمود. ونحن نرى أن فهم دور الدين المسيحي في العصور الوسطى، وتأثيره على النظام الاجتماعي والثقافي بصفة عامة؛ يفسر تعقيدات هذه الفترة التاريخية؛ ويساعدنا في فهم تطور الحضارة الأوروبية على مر العصور. وهنا نسعى لفهم دور الكنيسة بوصفها وصيّة على الحقيقة والمعرفة، وهذا يرشدنا إلى فهم كيف أثَّرت السلطة الكنسية، في تشكيل تصور التقدم، ومدى التأثير الذي أحدثته الكنيسة في تاريخ العصور الوسطى؛ من خلال الممارسات التي عزَّزت من النمو الروحي والأخلاقي إبان تلك الفترة.

فقد احتضنت الكنيسة الحضارة الجديدة، وبسطت عليها حمايتها. وقام رجال الكنيسة بالدفاع عن الاستقرار، الذي عاد إلى الوجود، وعن الحياة الصالحة، بعد أن

اندكت معالم النظام القديم، في غمار الفساد والجبن والإهمال. وكانت مهمة المسيحية– من الناحية التاريخية– هي أن تعيد الأسس الكريمة للأخلاق وللمجتمع؛ بما تفرضه من مثوبة ومعونة إلهيتين، لمن يعملون وفق قواعد النظام الاجتماعي الجديد الذي يسعون إليه، وأن تغرس في نفوس البرابرة الهمج السذج، مثلًا للسلوك، أرق وأجمل من مثلهم القديمة. وسعت أن تؤلف بينهم، وتجمع ما تفرق من شملهم، كما كان يجمعهم سحر اليونان، أو عظمة الرومان.[٥٠] إلى جانب عمل الكنيسة في التعليم، والمحبة، والترويض الأخلاقي للإنسان البربري، الذي ترك للحداثة صندوقًا ثمينًا من النظام الاجتماعي، والانضباط الأخلاقي.[٥١] كما أنها وضعت تصوّرًا للتقدم، يتضمن التاريخ المسيحي المقدس، ويعتمد على حركة مخططة نحو وجهة محددة. لكن الخطة هي خطة الله، وليس خطة الإنسان، وتعتمد على إرادته، وليس على جهد الإنسان.[٥٢] ولتعاظم دور الدين المسيحي في العصور الوسطى، ودوره الكبير في تشكيل الحضارة والثقافة؛ ظهرت– من حين لآخر– حاجة ملحّة لفهم تأثير الدين المسيحي على العصور الوسطى؛ فقام فولتير Voltaire (١٦٩٤–١٧٧٨م) في القرن الثامن عشر، بربط جُلِّ أحداث تلك الفترة بتأثير المسيحية.[٥٣] فقد كان لها دور بالغ التأثير؛ بامتلاكها السلطتين الدينية والأخلاقية، في تهيئة العقول لتقبل فكرة الأصل الإلهي للسلطة الملكية، وتشجيع الناس على التواضع، والمشاركة في الحياة العامة. وقد امتلكت الكنيسة، هيمنة أيديولوجية وأخلاقية على

---

٥٠ - ويل ديورانت: قصة الحضارة، مرجع سابق، ص٩١.

51 - Will Durant: Op . cit, p 408.

52 - Samuel Goldman: The Idea of Progress: a model course, Texas Tech University, united states , 2015, p 15.

53 - Flocel Sabaté: Life and Religion in the Middle Ages, first published, Cambridge Scholars Publishing, England, 2015, p 4.

أتباعها، أثرت في دعم وتكوين النظرة الدينية للحياة.[٥٤] وأصبح للديانة المسيحية والكنيسة–شيئًا فشيئًا– دورٌ رئيسٌ في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية، وصار سمة أساسية للثقافة الأوروبية في العصور الوسطى. وأخضعت الكنيسة السياسة والأخلاق، والعلم، والتعليم، والفن. إلى درجة؛ أن اكتست النظرة البشرية للعالم في العصور الوسطى، بصبغة لاهوتية شاملة.[٥٥] وكانت الحضارة بأكملها منغمسة في الدين، كما ادَّعى المؤرخ الاقتصادي كارل بولاني Karl Polany (١٨٨٦ –١٩٦٤م).[٥٦]

ومن مآثر الكنيسة في سياق نظرية التقدم في العصر الوسيط؛ ما قدمته من صياغة وتفسير للعهدين القديم والجديد؛ بوصفهما محطتين على طول رحلة الله مع شعبه؛ حيث أدى هذا المفهوم؛ إلى تشكيل الفكرة المسيحية للتاريخ التقدمي للخلاص. وقد تجلّى ذلك بداية؛ في كتابات القديس إيريناوس Irenaeus (١٣٠–٢٠٢م). الذي علّم أن الرب، قد أسس عهدًا جديدًا، حلَّ محل العهد السابق، وفسَّر ذلك؛ على أنه علامة على إرادة الله لقيادة البشرية تدريجيًا إلى الكمال النهائي. وأقر أن التقدم؛ هو التقدم في إيمان الفرد المؤمن وجميع المؤمنين. وأن هناك خطة إلهية، لتيسير أعمال الإنسان، تتكشف تدريجيًّا في التاريخ، عبر رحلة الإنسان نحو التقدم في رحلة الخلاص.[٥٧] طبقًا لهذه الخطة، يحدد الله كل الأمور مسبقًا؛ لأجل الوصول بالإنسان إلى الكمال والنضوج في المستقبل؛ ليستطيع رؤية الرب، ويدرك محبته، وهذه أكمل صور التقدم.[٥٨] ثم قام

---

54 - Ershov, Bogdan Anatolievich:" Historical Sciences" The Role of the Church in Medieval society, Journal «Bulletin Social-Economic and Humanitarian Research», № 1 (3), 2019, p 59.

55 - Ibid: p 60.

56 - Jacques Le Goff: The Birth of Europe, Op. cit, p 200.

57 - Angelo Di Berardino: Encyclopedia of Ancient Christianity, InterVarsity Press, U.S.A, 2014, p p 317.

٥٨ – القديس إيرينيوس: ضد الهرطقات: ترجمة نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أنطونيوس– المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة، ٢٠١٧م، الكتاب الرابع، فصل٣٧، فقرة ٧، ص ٢٥٨.

المؤلفون اللاحقون أمثال كليمنت الإسكندريClement of Alexandria (١٥٠–٢١٥م)، وترتليان Tertullianus (حوالي ١٦٠ – ٢٢٠ م)، وأوريجن، بتوسيع هذه الفكرة، لتشمل تاريخ الكنيسة نحو التقدم الروحي؛ لذلك كان نظام الكنيسة يتغير تدريجيًّا نحو الأفضل.[٥٩]

بذلك عبّر أبرز المدافعين المسيحيين عن آراء، تتضمن الاعتقاد بأن العالم قد أحرز تقدمًا ملموسًا في الزمن التاريخي تحت رعاية المسيحية، وأنه يمكن توقع المزيد من التقدم. وأكد هؤلاء الكتاب، أن قانون الإيمان الجديد، جلب البركات للبشرية جمعاء، وليس فقط لأتباعها. وأشاروا إلى الحقيقة التاريخية، التي لا يمكن إنكارها ؛ وهي أن ميلاد المسيح؛ قد حدث في وقت تأسيس الإمبراطورية الرومانية، على يد أغسطس Augustus (٦٣ ق م– ١٤م)، وتأسيس السلام الروماني على الأرض. وبما أن ظهور المسيح، تزامن مع تحسن ملحوظ في كل الأمور الدنيوية؛ لذلك جادلوا بأن نمو الإيمان الجديد؛ سوف يكون مصحوبًا بمزيد من التقدم.[٦٠] ثم تطورت تلك الرؤية؛ لتُعلي من شأن دور الكنيسة في مجتمع العصور الوسطى؛ حين جعلها أوغسطين محورًا لهدف وحركة التاريخ ؛ حين أقر أن حركة التاريخ، تتكشف في حياة الكنيسة في اتجاهها التصاعدي نحو الكمال المسيحي، ويتحقق اكتمالها في حياة الكنيسة، التي هي حياة التقوى الروحية. وأعلن– بشكل قاطع– أن هذا التقدم ليس مجرد مشروع وإنجاز دنيوي. وما لم يكن مستوحى من التواضع التقي، وناتجًا عن النعمة الإلهية؛ فهو عديم الجدوى ومهلك للذات. بذلك أضفى أوغسطين طابعًا روحانيًّا شاملًا، على التصوّر المسيحي

59 - Angelo Di Berardino: Op . cit, p 317.
60 - Theodor E. Mommsen: St. Augustine and the Christian Idea of Progress, Journal of the History of Ideas, Vol. 12, No. 3 (Jun., 1951), p 357.

لمفهوم التقدم.[٦١] وقد لعب الدين – برعاية الكنيسة – دورًا مهمًا في الثورة العلمية؛ فغالبًا ما شكل الدين الأسئلة التي كان العلم يطرحها، بالإضافة إلى عديد من الافتراضات، التي وجهت الاكتشافات الرائدة في القرن السابع عشر. وبشكل عام، سعى المفكرون إلى وضع أسباب وتفسيرات أكثر تحديدًا للحقائق المطلقة عن الكون، وتوفير أسس أقوى لمعتقداتهم الدينية.[٦٢] وقد عبّر فرانسيس بيكون، وبعده بفترة قصيرة، ديكارت، عن وجهة نظر، مفادها أن العلم الجديد، سيمنح الإنسان السيطرة على الطبيعة، التي وعده بها الرب نفسه، في التقليد الكتابي.[٦٣] وفقًا لذلك فإن الصراع بين الدين والعلم الذي عانت منه ثقافة هذه الحقبة لا يرجع للخطاب الأخلاقي أو الروحي للفكر اللاهوتي؛ بل يرجع في المقام الأول إلى رغبة الكنيسة في الهيمنة على سلطة الحكومة الإمبراطورية، وعدائها مع الاقطاعيين وأصحاب رؤوس الأموال، أضف إلى ذلك إقناعها العوام بأن خلاصهم وسعادتهم في الاتحاد مع مدينة الرب وليس إمبراطورية القيصر، وأن العلم لا يمكن أن يحقق السعادة للناس. ونحن نريد أن نذكر في هذا الصدد، أن طبيعة العصر الوسيط؛ هي التي فرضت نفسها على واقع الحياة في ذلك الوقت، وعندما ظهرت بشائر التقدم العلمي؛ انحسر دور الدين؛ وبدأ يتراجع تدريجيًّا، وترك زمام الأمور للعلم.

61 - Radoslav A. Tsanof: Civilization and Progress, The University Press of Kentucky, United States, 1971, p p 45, 46.

62 - David J. Davis The Genesis of Science: How the Christian Middle Ages Launched the Scientific Revolution by James Hannam:, Aestimatio, 10 (2013) p 52.

63 - Arnold Burgen ،Peter McLaughlin ،Jürgen Mittelstraß: The Idea of Progress, De Gruyter, Germany, 2012, p 3.

خامسًا: إسهامات فلاسفة القرون الوسطى في تطور فكرة التقدم:

أ- القديس أوغسطين: مدينة الله وتقدم البشرية.

أكد أوغسطين فكرة وحدة البشرية، والمسار التاريخي الذي اجتازته الإنسانية. وقدَّم في نسقه الفكري، تصوّرًا لتاريخ البشرية، يعبِّر عن تطورها ونضجها عبر الزمن، مستندًا على فهم الإغريق للنمو والتطور، ومتابعًا تفسير العهود التاريخية في العهد القديم في الوقت نفسه. وقد عزَّز هذا التكامل بين الفكر الإغريقي، والفكر اليهودي في أعماله؛ من فهمه الفلسفي للتاريخ والمعرفة. وساعده على تأسيس إطار فلسفي متكامل، يتعامل مع مفاهيم التطور والتاريخ والبشرية بشكل متجانس. في إطار ذلك؛ نظر إلى التقدم، من منظور مسيحي خالص، واعتبره سعيًا للنجاة الروحية، والارتباط بالله، في مقابل العالم المادي والخطيئة. ورأى أن الخطيئة جزء من حياة الإنسان، وجعل التقدم الروحي أمرًا ضروريًا للتحرر منها. ويتم التقدم؛ من خلال الإيمان بالله، والتوبة من الخطايا.

أما عن طبيعة الدور الإلهي؛ فيؤمن أوغسطين؛ بأن الله يتدخل في شؤون البشر، ويوجه تاريخهم نحو الخلاص؛ فوجود الله؛ هو العامل الرئيس في التقدم الروحي والتاريخي؛ "لذلك يحمل إسهام أوغسطين أهمية بارزة في مسار وخطة التاريخ البشري. فيما يتعلق بموضوع التقدم في المسيحية، نجد- إلى حد كبير- المفهوم الأوغسطيني نفسه، عن تطور الكنيسة والعقيدة المسيحية، التي تغنَّى بها عدد من الكُتاب المعاصرين. لكن أحد العيوب الرئيسة لهذا النهج الأوغسطيني؛ المبالغة في سلطة الكنيسة؛ حتى جعلها تتفوق- تقريبًا- على سلطة الكتاب المقدس والعقل؛ مما خوّل لها؛ تحديد ما الصواب والخطأ في تطور العقيدة.[٦٤] ويمكننا العثور على كل العناصر الأساسية لفكرة التقدم، بمعناها الحديث عند أوغسطين؛ إذ تتضمن رؤيته تقدمًا تراكميًّا، يتجلى للإنسانية

64 - Robert Flint: The Philosophy of History in Europe, Op . cit, p 40.

في الزمن المناسب؛ فهو يؤمن بجنس بشري واحد، ويؤكد إطارًا زمنيًّا واحدًا لجميع الشعوب والعصور في الماضي والحاضر، ويصور الزمن بوصفه تطورًا لخط واحد، مستخدمًا فكرة المراحل والعصور المتعاقبة في تاريخ البشرية. والإيمان بالطابع الحتمي والمقدس لتاريخ البشرية، كما هو منصوص عليه في العهد القديم، وأخيرًا تصور نهاية طوباوية واضحة للتاريخ في المستقبل، عندما يذهب المخلصون إلى السماء الأبدية.(٦٥) كذلك اشتملت رؤيته على الاعتراف بتفوق القانون الجديد على القانون القديم، والإيمان بالتحول الشامل نحو نور الحقيقة، وأصبح يُنظر إلى الحياة البشرية على أن لها هدفًا يقترب تحققه تدريجيًّا، ويفيد أن البحث عن الله؛ كان المغزى الحقيقي للتاريخ منذ بدايته في آدم، وحتى الدينونة الأخيرة، ومجيئ المسيح.(٦٦) لذلك ذكرت الدكتورة زينب الخضيري أن أوغسطين ميّز بوضوح في لاهوت التاريخ بين نوعين من التقدّم: أحدهما temporal أو دنيوي، وهو تقدّم مادي أو تحسّن في ترتيب الأمم والسياسة والعمران، والآخر تَقَدّم روحيّ، مُنتسب إلى نمو الفضائل، وتقوية الإيمان، وتحقيق السمات التي تنتمي إلى مدينة الله. وتستنتج من ذلك أن التقدّم الأرضي وحده لا يكفي في فلسفة أوغسطين؛ بل يجب أن يكون مكمّلًا بصيرورة روحية داخليّة. ويتجلى هذا التمييز في الجزء الذي يفصّل فيه أوغسطين العلاقة بين الزمن الدنيوي والحاضر المادي من جهة، والغاية الخلاصية من جهة أخرى(٦٧).

وعلى الرغم من إصرار أوغسطين على تحقق التقدم روحيًّا، فإنه لم يهمل الجانب المادي في التقدم؛ فتحدث عن عبقرية الإنسان، وقدرته على الاختراع والابتكار، ولم ينكر

65 - Robert Nisbet: History of the Idea of Progress, Routledge, London & New York, 2017, p 12.

66 - Ibid: p 35.

٦٧ – **زينب محمود الخضيري، لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين؛ دار قباء، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٦٠.**

قدرات الإنسان في الوقت نفسه؛ فتحدث في كتابه "مدينة الله"، عن" دور العلم البشري، في الفنون المختلفة، ومنها الميكانيكا، وعمَّا يحدثه العلم الإنساني، من تغيرات في الأشياء بطريقة مذهلة؛ فهناك– على سبيل المثال– التجانس الرائع في الحجارة مع قياسات البناء، الذي هو نتاج الفن الإنساني في صناعة الحجر، وهو يعود لخالق الأشياء، ولعبقرية الناس، الذين يعرفون كيف يستعملونها استعمالًا عجيبًا".[٦٨] وأشار إلى أن التطور والتحسن، والكمال في المهن والفنون والعلوم، هدية منحها الله للإنسان. لقد رسم تشبيهًا لتطور الجنس البشري، يبين أن العقل مهيأٌ للصعود من الزمني إلى الأبدي، ومن المرئي إلى غير المرئي؛ وأن شيخوخة البشرية لم تكن تدهورًا؛ بل هي كمالٌ؛ لذلك يمكن تسمية "مدينة الله" للقديس أوغسطين، بالنظرية المسيحية للتقدم. وقد حملت نظريته التقدمية أهمية بالغة؛ لاحتوائها على فكرة الخلاص ضمنيًّا. وكانت بمثابة عقيدة دينية بالنسبة للمسيحيين آنذاك.

ولم يكن إسهام أوغسطين الوحيدة في إطار صياغة التقدم؛ فقد كان هناك اهتمامٌ متزايدٌ داخل الكاثوليكية بفلسفة القرون الوسطى، وقد مثّل إتين جلسون Étienne Gilson (١٨٨٤– ١٩٧٨م)، أحد النماذج المهتمة بإثبات وجود تقدم فلسفي حقيقي في عصر القرون الوسطى، حينما بدأ بدراسة فكر القرون الوسطى بشكل عام، والأكويني على وجه الخصوص، وأقر أن فترة العصور الوسطى، كانت فترة تقدم فلسفي حقيقي؛ بسبب خدمتها للاهوت[٦٩]، فقام بسرد تاريخ فلسفة القرون الوسطى؛ بوصفه نظرة متعمقة في الموضوعات الفلسفية الحقيقية الوجود، والسببية، والمعرفة، واللغة، والإرادة الحرة،

---

٦٨ - **القديس أوغسطين: مدينة الله، ج ٣، ك ٢١، ف ٦، ص ٢٧٠.**

69 - John J. Piderit ،Melanie M. Morey: Teaching the Tradition: Catholic Themes in Academic Disciplines, Oxford University Press, United Kingdom, 2012, p 80.

والمحبة، والقانون، والأخلاق، واعتبر جُلّها، وليدة اللاهوت[٧٠]؛ لذلك لم تضع فكرة التقدم؛ حيث أقر كلا من القديس هوغ دي سان فيكتور Hugues de Saint-Victor (١٠٩٦ – ١١٤١م) في القرن الثاني عشر، وتوما الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥– ١٢٧٤م) في القرن الثالث عشر– على سبيل المثال– بأن التقدم قانونٌ عالميٌّ للأشياء، والمعرفة تقدمية، وأن الوحي قد تكشّف تدريجيًّا؛ ليناسب الحاجات المختلفة للأجيال المتعاقبة، وعلى الرغم من توقفه مع اكتمال الإنجيل؛ فقد تُرك مجال للاستمرار غير المشروط، والذي يعتمد على فهم الإنجيل سبيلاً للتقدم.[٧١] وقد تمسك روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤–١٢٩٤م) بأكثر الآمال عقلانية للتقدم الفكري في المستقبل؛ لثقته المطلقة في العلوم التجريبية.[٧٢] ثم انتقل مفهوم التقدم إلى القرن السابع عشر؛ عندما بدأ حقبة جديدة له، على أيدي أربعة رواد متقاربين زمنيًّا، هم: بودان Jean Bodin (١٥٣٠ – ١٥٩٦)، وبيكون، وديكارت René Descartes (١٥٩٦–١٦٥٠)، وباسكال Blaise Pascal (١٦٢٣– ١٦٦٢م)، ومنحوه تعبيرًا مدهشًا للغاية، لا يمكن إنكار أهميته وتأثيره.[٧٣]

كان هذا، إذن، هو تطور فكرة التقدم قبل العصر الحديث: فقد تبدت لدى بعضهم في شكل جزئي، وبشكل أكثر شمولية لبعضهم الآخر، وتجلّت في المثل الدينية أحيانًا أخرى. واكتست طابعًا علمانيًّا في العصر الحديث، وشكلت– بصورة تدريجية– عقيدة

70 - Ibid: p 81.
71 - Robert Flint: Op . cit, p 40.
72 - Ibid: p 41.
73 - Robert Flint: Op . cit, p 42.

كاملة. وتمحور الاهتمام– أولًا وقبل كل شيء– على نجاحات المعرفة البشرية، وتم تطوير فكرة التقدم لاحقًا، لكن العقيدة الكاملة لم تظهر إلا في القرن الثامن عشر.(٧٤)

ويجدر القول: أن هناك جانبًا لا يمكن التغاضي عنه، حتى وإن أنكره دعاة عدم وجود عناصر للتقدم في العوالم القديمة، سواء في العالم اليوناني، أو المسيحي من الحداثيين. ينص على أن الاستمرارية في التطور الفكري، جزء من طبيعة الإنسان؛ بوصفه كائنًا اجتماعيًّا وثقافيًّا، يتعلم ويتطور عبر الأجيال. لذلك فالتأثير المتبادل بين الثقافات والعصور، جزء من العملية التطورية للفكر الإنساني؛ لذا، من المهم دائمًا فهم الفكر؛ بوصفه جزءًا من تجربة التاريخ الإنساني وتطوره؛ من خلال التفاعل، والتأثير المتبادل بين العصور المختلفة، والثقافات المتنوعة. وهذا يعزز من فكرة تأثير العصر السابق على اللاحق عليه، مثلما حدث في انتقال مفهوم التقدم من المسيحية الوسيطة إلى العصر الحديث.

ونخلص من العرض السابق لفلسفة القديس أوغسطين والمراحل التالية لها إلى عدة نتائج أهمها: أن أوغسطين قد نجح – إلى حد كبير– في وضع أعمدة ثلاثة أقام عليها فكرة التقدم :– أولها فكرة القدر أي أن الواقع السياسي والاجتماعي والأخلاقي في روما قدرًا من الله، وبمشيئته أراد تغيره على يد أوغسطين في خطابه الذي أعلن فيه نهاية الصراع بين القبائل المتنازعة والطبقات المتصارعة والمحكومين تجاه الحاكم باعتبار أن واقعهم من عند الله وأن الصابرين عليه سوف يجازون بعد أن يتم خلاصهم بعد الانتقال إلى الحياة الأبدية.

74 - Louis Shein: Readings in Russian Philosophical Thought: Philosophy of History, Wilfrid Laurier University Press, Canada, 2010, p p 34, 35.

وثاني الأعمدة، يتمثل في اليقين المعرفي الإلهي؛ فكل الاخبار والتصورات السابقة على وجود المخلص، يمكن الشك فيها، أما الحقيقة؛ فهي لا تلتمس إلا في تعاليم الكتاب المقدس ووصايا المسيح بوصفه المعلم الأول القادر على إلهام العقول بصوالحهم في حياتهم الأرضية ويحقق خلاصهم.

أما ثالث الأعمدة، يتمثل في التأكيد على أن الخلاص مرهون بطاعة المؤمنين بالسعادة الروحية التي يطلبونها رغم تعرضهم لأشكال من القسوة في رحلة حياتهم الأرضية فمدينة الله هي مكمن السعادة حيث لا فرق فيها بين الأمير والفقير والسيد والعبد كما أن الحرية والعدالة، يجب أن تلتمس معانيها في المشيئة الإلهية.

خاتمة وأهم نتائج البحث:

من خلال عرض عناصر فلسفة التقدم في العصور الوسطى المسيحية؛ وقفنا على مجموعة من النتائج، أهمها:

- هناك اختلافٌ جوهريٌّ بين فهم التقدم في العصور الوسطى، عن فهمنا الحديث له. ويعني ذلك؛ أن هناك فارقًا جوهريًا بين مفهوم التقدم؛ بوصفه مفهومًا عامًا من التحسن والتطور، وبين مفهومه بوصفه مفهومًا دينيًّا، يعتمد على الوعد الأخروي .لذلك كان التقدم في تلك الفترة تقدُّمًا روحيًّا وأخلاقيًا، أكثر من كونه تقدمًا علميًّا وتكنولوجيًّا. وقد لعبت الكنيسة المسيحية دورًا مهمًّا؛ في توجيه مفهوم التقدم نحو الروحانية والخلاص الديني، بالترويج للتقدم الروحي، والديني، وتعزيز الإيمان، والأخلاقيات الدينية، وتشجيع الناس على الصلاة والتوبة؛ لتحقيق التقدم الروحي.
- لم يقتصر تأثير الكنيسة على مجتمع العصور الوسطى، على الشؤون الدينية فحسب؛ بل كان لها تأثيرٌ شاملٌ، يمتد إلى جميع جوانب الحياة؛ حيث قدمت للناس إطارًا

أخلاقيًا لفهم العالم، وأسهمت في تشكيل وعيهم الجمعي، وأثرت- بعمق- على تصوراتهم، وأفعالهم، وقيمهم؛ فأسهمت في تعليم الناس، ونقل المعرفة، ودعمت الفنون والثقافة، وقدَّمت الدعم الاجتماعي والسياسي. وكان لها دورٌ مؤثرٌ في تشكيل الثقافة الأوروبية، وتعزيز التقدم الإنساني في تلك الفترة.

- شهدت العصور الوسطى تطورًا في التفكير اللاهوتي، وفهم العلاقة بين الإيمان والعقل؛ حيث قدم الفلاسفة المسيحيون المؤثرون مثل القديس أوغسطين وغيره، إسهامات مهمة في تطوير فكرة التقدم، وكانت لأوغسطين، رؤية شاملة في التاريخ، تعتمد- في المقام الأول- على فكرة التقدم الروحي نحو الكمال. إذ ربط جل الفلاسفة المسحيين بين الإلهام الإلهي المرشد للخير والإصلاح وبين التفكير الفلسفي المسيحي الذي يقودهم للخلاص والكمال دون أدنى صراع بين المعارك المشكوك في صحتها واليقين الذي يتعذر الارتياب فيه، كما أنه لم يضحي بالعقل الإنساني؛ بل جعله بين قوسين (أؤمن كي أعقل ، وأعقل كي أؤمن) أي أن الخلاص والكمال والسعادة في الايمان وليس في الصراع الدموي أو التمرد على الواقع.
- أرست فلسفة العصور الوسطى الأوروبية، الأساس لعصر النهضة والتنوير اللاحق لها؛ مما يدل على أن مفهوم "العصر المظلم" اصطلاحٌ يجب مراجعته في ضوء المنطق العملي أو منطق متعدد القيم أو فقه الضرورات أو الغاية تبرر الوسيلة. فلو سلكت الكنيسة سلوكًا ثوريًا ضد السلطات القائمة؛ لقضي على الدعوة المسيحية وانتهى الامر إلى ما كان عليه المجتمع الروماني على الصعيدين الأخلاقي والروحي والمعرفي، كما حدث في أثر اليهودية على الفكر الروماني؛ فالتقدم الذي تبنته الكنيسة، يستند -كما ذكرنا- على قاعدتين: أولها، الإصلاح الهادئ والتطور السلمي في معالجة النزعة الأخلاقية الرومانية والفكر الوثني المادي وترغيب الرأي العام في الايمان الروحي الذي يهذب النفس والوجدان، أما القاعدة الثانية، التي أشرنا إليها

أيضًا هي الفصل التام بين ما لقيصر وما لله؛ أي التسليم لواقع الدعوة الروحية الجديدة من جهة وسلطة الحاكم والنبلاء من جهة أخرى، وعليه فالتقدم الذي نتحدث عنه في هذه الحقبة ليس من الناحية المادية –بالضرورة– وهو الذي يؤدي إلى تحسين طبيعة الإنسان؛ بل إن التقدم الأخلاقي والروحي، هما ما يحققان تلك الراحة، فالتقدم الحقيقي؛ يتعلق بالإنسان نفسه. تلك وجهة النظر التي تبنتها فلسفة العصور الوسطى، وعالجناها في هذا البحث.

- بصفة عامة، يظهر أن التقدم ليس له نهاية واضحة أو هدف نهائي، إنه رحلة دائمة؛ لاستكشاف إمكانات الإنسان، وتحقيق طموحاته. وينعكس هذا المفهوم؛ على طبيعة الإنسان المعقدة، وقدرته على التطور والتغيير، وهو موضوع تحتاج الفلسفة إلى استكشافه بعمق؛ لفهم جوانبه المعقدة، وتأثيره على مجريات التاريخ والمجتمع، ونحن ندعو أن يكون البحث في مفهوم ومقومات التقدم؛ أحد أولويات الفلسفة؛ لكونه موضوعًا مهمًّا في وقتنا الراهن.

قائمة المراجع

أولاً: المصادر:

أ: المصادر العربية والمترجمة إليها.

١- القديس أوغسطين، **مدينة الله**، ترجمة يوحنا الحلو، ج٣، دار المشرق، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.

٢- القديس إيرينيوس، **ضد الهرطقات:** ترجمة نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أنطونيوس- المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة، ٢٠١٧م.

ثانيًا: المراجع

أ: المراجع العربية والمترجمة إليها.

١- أمين، جلال، **خرافة التقدم والتخلف العربي والحضارة الغربية في مستهل القرن الواحد والعشرين**، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٧م.

٢- الخضيري، زينب محمود، لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، دار قباء، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م.

٣- المسيري،عبدالوهاب، **العالم من منظور غربي**، دار الهلال، القاهرة، ط١،٢٠٠١ م.

٤- ـــــــ، **قراءة في مفهوم التقدم**، مجلة نوافذ، ع ٤، الخرطوم، يناير ٢٠٠٤م.

٥- نصر، سيد حسين، **الحاجة إلى علم مقدس**، ترجمة د. حماده أحمد على، وعمر نور الدين، دار نيو بوك، القاهرة، ٢٠١٥م.

٦- ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، مج ٤، ج٦، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

ب: المراجع الأجنبية والمترجمة إليها.

1-Angelo Di Berardino, *Encyclopedia of Ancient Christianity*, InterVarsity Press, U.S.A, 2014.

2- Arnold Burgen ،Peter McLaughlin ،Jürgen Mittelstraß, *The Idea of Progress*, De Gruyter, Germany, 2012

3- Concha Roldán ،Daniel Brauer ،Johannes Rohbeck, *Philosophy of Globalization*, De Gruyter, Germany, 2018.

4- David J. Davis, The Genesis of Science: *How the Christian Middle Ages Launched the Scientific Revolution by James Hannam:,* Aestimatio, 10 (2013) .

5- Ernest A. Moody, *Studies in Medieval Philosophy, Science, and Logic: Collected Papers 1933–1969*, University of California Press, United States, 2022.

6- Ershov, Bogdan Anatolievich," Historical Sciences" The Role of the Church in Medieval society", *Journal «Bulletin Social-Economic and Humanitarian Research»*, № 1 (3), 2019.

7- Filipe Duarte Santos, *Time, Progress, Growth and Technology: How Humans and the Earth are Responding,* Springer International Publishing, New York, 2020.

8- Flocel Sabaté, *Life and Religion in the Middle Ages*, Cambridge Scholars Publishing, England, 2015.

9- Garland E. Allen ،Roy M. MacLeod, *Science, History and Social Activism: A Tribute to Everett Mendelsohn*, Springer Netherlands, United States, 2013.

10- Gilbert F. LaFreniere, *The Decline of Nature: Environmental History and the Western Worldview,* Oak Savanna Publishing, United States , 2012.

11- J. B. Bury, *The Idea of Progress: An Inquiry into Its Origin and Growth,* Macmillan and Company, Limited, London , 1921.

12- Jacques Le Goff, *The Birth of Europe,* Wiley, U.S.A, 2009.

13- John J. Piderit ،Melanie M. Morey, *Teaching the Tradition: Catholic Themes in Academic Disciplines,* Oxford University Press, United Kingdom, 2012.

14- Louis Shein, *Readings in Russian Philosophical Thought: Philosophy of History,* Wilfrid Laurier University Press, Canada, 2010.

15- Radoslav A. Tsanof, *Civilization and Progress,* The University Press of Kentucky, United States, 1971.

16- Robert Benjamin Bailey, *Sociology Faces Pessimism: A Study of European Sociological Thought Amidst a Fading Optimism*, Springer Netherlands, U.S.A, 1958.

17- Robert Flint, *The Philosophy of History in Europe,* Outlook Verlag, Germany, 2023.

18- Robert Nisbet, *History of the Idea of Progress*, Routledge, London & New York, 2017.

19- Samuel Goldman, *The Idea of Progress: a model course,* Texas Tech University, united states , 2015.

20- Stanley Diamond, *In Search of the Primitive A Critique of Civilization*, Taylor & Francis, United Kingdom, 2017.

21- Theodor E. Mommsen, "St. Augustine and the Christian Idea of Progress", *Journal of the History of Ideas*, Vol. 12, No. 3 (Jun., 1951) .

22- Walter Kudrycz, *The Historical Present: Medievalism and Modernity,* Bloomsbury Publishing, London, 2011.

23- Will Durant, *The Age of Faith: The Story of Civilization*, Vol IV, Simon & Schuster, New York, 2011.

ثالثا: المعاجم والموسوعات:

١- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

٢- المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣م.

The Concept of Progress in Medieval Europe between Religious Authority and Secularism

Abstract

This research aims at discussing the concept of progress in European medieval eras through tackling its relevant events of an unbalanced position between religious authority and secular power on both the intellectual ideological level and the social level. This is in addition to illuminating role of religious power, which is regarded as a dominating power, in forming the concept of progress, and role of secularism which aims at seeking knowledge outside religious limits. Moreover, this research aims at determining the main fundamentals which influenced forming awareness, and belief in soul proof or divine consciousness through regarding human awareness as a reflection and echo of this divine awareness. Thus, this leads to believing in elevation and greatness of divine truth through considering it as greater than any other material matter in this world. In a similar vein, this leads one to scrutinize factors of natural theology eclipse and decline, as well as determining reasons of ignoring mathematical and natural laws and the inclination to be interested in what is divine. Furthermore, this research aims at analyzing the idea that human history is a sacred history which is oriented by the direction and handling of God and it also aims at determining effect of this on formulating the concept of progress. Additionally, this research aims at determining the reasons that made progress based on a moral and spiritual perspective with focusing on redeem and the church role. Moreover, one of the main objectives of this research is determining significance of the role played by the church, as a mediator between Allah and humanity, in determining and formulating the concept of progress. Additionally, this research seeks to pinpoint the role played by philosophers, most notably

Augustine, in formulating the concept of progress. This research reached some findings and the most important of which is that there is a fundamental difference in conceptualizing and formulating the concept of progress in medieval ages from our modern conceptualization and understanding of it. This is because there is a fundamental difference between concept of progress as a general concept for enhancement and development and the concept of progress as a religious concept that is based on the hereafter promise. The church played a significant role in directing the concept of progress towards spirituality and redeem in medieval ages.

Keywords: progress, secularism, teleology of history, Augustine, the church